

امجاد المنصورية



إعداد: هشام الجبالي



موسوعة التاريخ

YP

9

L

V3

مرحباً بأصدقائي في كل بقعة من أرض مصر.
 أسمى «نيل» وجبت منذ أن شق النهر مجراه في أرضنا فجلب
 لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصحاب أجدادكم
 القدماء في رحلات البناء الطويلة، وأرافق أبائكم في مسيرة العمل
 من أجل رقي مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأسى لهزانهم،
 أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ما هو مصري
 فأطوف بأرجاء البلاد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، أبحث عن كل
 جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضي النهار أبحث أبنائنا على بذل
 المزيد من الجهد، وأمسي لأحلم لها بغد أكثر إشراقاً ومستقبلاً يعلاها
 الرقي والتحضر، أعتدت أن أصحاب الشيخ كثير النشاط والحركة
 «تاريخ» كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له
 المساعدة ليسجل لها في أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها،
 لهذا ستجدوني معكم عبر حكايات «تاريخ» وحوادث مصر
 وأخبارها.



موسوعة تاريخ مصر

المُحررون : هشام الجبالي
 الرسوم الداخلية : علاء حجازي
 هاني طه - إيهاب وصفي - حنان فتحي
 الإخراج : المكتب العربي للمعارف
 رقم الإيداع : ١٩٩٤/٥٤٤١
 الترجمة الدولية : I.S.B.N: 977-276-018-5
 المراجعة اللغوية : شوقي هيكمل

أمجاد المنصورية

962
Lip.



عربی (شراء)

التسجير

مكتبة دار الفنون

كان صلاح الدين يوسف بن أيوب قائداً فذاً من ذلك الطراز الذي يسعى به ذكاؤه وطموحه إلى رحاب المجد والرفعة متى أتاحت له السبل، فإن لم تتح راح يخلقها ويمهد جنبايتها بطوفان من الكد والعمل الذي لا يعرف إليه اليأس أو الملل طريقاً، وهكذا لم يكتف صلاح الدين بما أتاحت له الأقدار من انفراد بحكم مصر عقب وفاة العاضد الفاطمي ونور الدين محمود الزنكي، بل راح يمهّد لنفسه سبل السيطرة على أراضى الدولة الزنكية التي أصابها الوهن والتفكك عازماً على ضمها إلى ملكه، لتألف مع أرض مصر جبهة واحدة في وجه احتلال الصليبيين لبعض الأراضى العربية وأطماعهم في بعضها الآخر، وعلى هضبة حطين في صباح الخامس من يوليو عام ١١٨٧ نقشت الجيوش العربية بقيادة صلاح الدين في ذاكرة العالم وقائع انتصارها الرائع الذي انطلقت من

خلاله تزيل آثار الاحتلال الصليبي من فوق أرض العرب، حتى إذا ما توجت فتوحاتها بتحرير مدينة بيت المقدس انتفضت أوروبا وأرسلت بخيرة فرسانها وملوكها إلى الشرق حيث خاضوا مع جيوش صلاح الدين المعارك يقودهم ملك إنجلترا الشاب ريتشارد قلب الأسد الذي سرعان ما لمس مقدار صلابه خصومه وأدرك مدى صعوبة الثيل منهم، فراح يسعى إلى عقد الهدنة ووقف المعارك التي ماكادت تتوقف حتى لحقت الوفاة بالناصر صلاح الدين في أوائل عام ١١٩٣.

ولأن الدولة الأيوبية مع اعتمادها الكامل على زعامة صلاح الدين راحت تنشغل بخوض المعارك والتجهيز لها عن توطيد دعائم حكمها وإدارتها كان لابد أن تتوالى عليها المتاعب عقب فقدانها لسلطانها وقائدها الراحل، إذ تفرقت أراضها إلى إقطاعات شبه منفصلة تحت حكم



شمعدان نحاسي - فنون إسلاميه القرن الثالث عشر

ملوك البيت
الأيوبي وفي
مقدمتهم العادل
بن أيوب وأبناء
صلاح الدين
الثلاثة الأفضل
والعزيز والظاهر،
ومع جلوس
الأفضل الذي لم
يتميز بغير
الضعف وعدم
القدرة على إدارة
دفة الحكم على
عرش السلطنة
خلقاً لأبيه، حاول
العزيز ملك مصر
الحصول على

ثم مال بث أن عزم على الإطاحة
بالجميع وتوحيد الأراضى الأيوبية من
جديد تحت زعامته، وبالفعل ابتداءً
بأراضى الأفضل في سوريا ولبنان
وفلسطين عام ١١٩٦، وبعد ما يقرب

أراضيه وشرع في محاصرته خلف
أسوار دمشق أكثر من مرة، غير أن
العادل وقف أمام محاولاته متصباً من
نفسه حكماً فيما ينشأ من نزاعات
في أرجاء الدولة الأيوبية أول الأمر،

من عامين تُوقَى العزيزُ وأسرع قادة جيوش مصرَ باستدعاء الأفضل وتسليمه الحكم، فلم يمض وقتٌ طويلٌ حتى أتاح الأفضلُ بضعفه وسوء تصرفه الفرصة أمام العادل ليغزو بجيوشه أرض مصرَ ويتمكّن من فرض سيطرته عليها في أوائل عام ١٢٠٠، وهكذا نجح العادل في توحيد الجانب الأكبر من الأراضي الأيوبية تحت زعامته، لكنه مالَبث أن عادَ وقسّم أراضى دولته بعد احتفاظه بلقب السلطنة بين أبنائه الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف حيث كانت مصرُ من نصيب الملك الكامل الذى قدّر عليه الدخولُ في مواجهةٍ عاصفةٍ مع القوى الصليبية، إذ كان حكام الإمارات الصليبية في المشرق قد فزعوا من محاولة العادل إعادة توحيد الجبهة الأيوبية وأسرعوا يستنجدون بالأوروبيين، ليتمّ إعدادُ الحملة الصليبية الرابعة التى انحرفت تحت تأثير أطماع الغرب الأوربي،

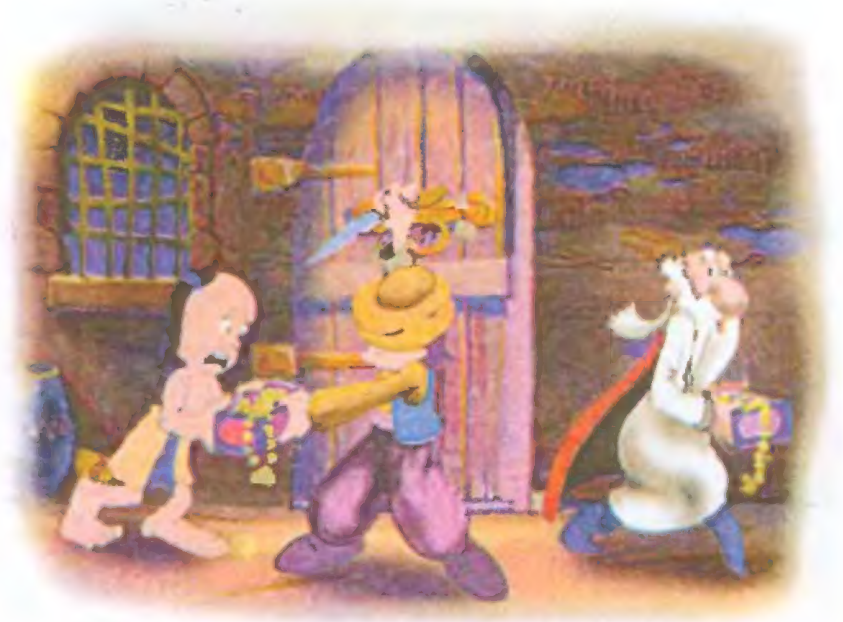
وتوجّهت صوب القسطنطينية عام ١٢٠٤، وإلى أن يتمّ الانتهاء من إعداد حملة جديدة ظلّ الصليبيون حريصين على عدم إشعال نيران معركة حاسمة مع العرب، حتى إذا توافدت على إماراتهم جيوش الحملة الخامسة من الغرب انطلق أسطولهم من شواطئ مدينة عكا قاصداً ميناء دمياط عام ١٢١٨ .

وفي دلتا مصرَ ما إن دارت رحى المعارك حتى لحقت الوفاة بالسلطان العادل وأرسل الملك الكامل إلى الصليبيين يعرضُ عليهم في ضعفٍ ظاهرٍ أن يتنازلَ لهم عن جميع الفتوحات الأيوبية بما فيها بيت المقدس مقابل جلائهم عن مصر، لكن الصليبيين قابلوا عرضه السخى بالرفض واستولوا على دمياط قبل أن يتابعوا سيرهم في اتجاه القاهرة، بينما تحصّن الكامل بجيوشه خلف أسوار المدينة الجديدة التى أقامها وأطلق عليها اسم المنصورة، وهناك

توافدت عليه جموعُ المصريين من كلِّ صوبٍ عازمةً على الدفاع عن بلادها، كما وفد كلُّ من المعظم والأشرف على رأس جيوشَيْهِمَا وراح الجميعُ يستعدُّ لوقفِ تقدُّمِ الجيوشِ الصليبية التي ماكادت تصلُ إلى منطقةٍ تفرُّع بحريٍّ أشمونَ من فرعٍ دمياطَ وهي المنطقةُ التي تزخرُ ربوعُها بالقنواتِ والمجاري المائيةِ حتى أسرع الجنودُ المصريون يحطِّمونَ الحواجزَ والسدودَ، لتنهالَ المياهُ على الصليبيين من كلِّ جانبٍ ولا تتركَ لهم سوى طريقِ الاستسلامِ والجلاءِ من البلادِ بلا قيدٍ أو شرطٍ

في السابع من سبتمبر عام ١٢٢١ وإذا كان أبناءُ العادلٍ قد أظهرُوا شيئاً من الترابطِ والاتحادِ في مواجهةِ الصليبيين فإنهم لم يبلثوا بعدَ فشلِ الحملةِ الخامسة أن أشعلوا بينهم نيرانَ الصراعاتِ حيثُ بادر المعظمُ بإظهارِ عدائِهِ للكاملٍ وراح يتحالفُ مع جلالِ الدين الخوارزمي مهدياً بغزو مصرَ عام ١٢٢٧، مما دفع الكاملَ إلى طلبِ المساعدةِ من الإمبراطورِ الأوربيِّ فردريك الثاني واعدادِ إياه بتسليمِهِ جميعَ الفتوحاتِ الأيوبيةِ في فلسطينَ ولبنانَ وسوريا، ولكنه حينما

وصل فردريك الثاني بسجيشِهِ إلى عكا معتمداً على ما بذله له الكاملُ من وعودٍ كانت الظروفُ قد تبدلت قماماً، إذ لحقت الوفاةُ بالمعظمِ تاركاً أراضى دولته لابنِهِ الناصرِ داودَ، ولما كان الناصرُ لا يزالُ شاباً



صغيراً اقتسم عمّاه الكامل والأشرف أملاكه تاركين له حكم إحدى الإقطاعيات الثانوية، وهكذا لم يعد الكامل في حاجة إلى مساعدة الإمبراطور الأوربي، غير أنه عاد وتخوف من احتمال قيادته لجيوش الصليبيين وزحفه على أراضي فلسطين ومصر في الوقت الذي كان فيه الناصر داود قد عقد التحالف مع جلال الدين الخوارزمي عازماً على استعادة ملكه الضائع وانتهى إلى عقد اتفاق معه سلمه بمقتضاه مفاتيح بيت المقدس مقابل عقد الهدنة لمدة عشرة أعوام.

كانت آخر رحلاتي لبلادكم هي هذه الرحلة التي قمت بها عام ١٢٢٩ عقب تنازل الكامل عن بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني، والتي أخذت بعد إتمامها أتجول في أرجاء القارة الأفريقية لبعض الوقت قبل أن أتوجه إلى جزيرة قبرص في طريقى إلى أوروبا، غير أنه قد حدث لي في

جزيرة قبرص مابدلاً وجهتى وجعلنى أعودُ ثانياً إلى بلادكم، ولعلكم تتسائلون الآن عما حدث وتسبب في عودتى لمصر قبل أن يمضى على زيارتى السابقة لها عشرون عاماً، حسناً إليكم جميع ما حدث.

بعد أن قضيت في قبرص بضعة أيام وقبل أن أقوم بمغادرة أراضيها في الثامن عشر من سبتمبر عام ١٢٤٨ متوجّها صوب الأراضي الأوربية إذا بشواطئها قد تكدست بالسفن، ألفاً وثمانمائة سفينة تحمل نحو ستين ألف مقاتل بأسلحتهم ومؤنهم، بالإضافة إلى عدد كبير من المهندسين والحرفيين والأطباء بمعداتهم وآلاتهم، وبعد قليل من الاستفسار علمت أن كل هذه المظاهرة الحربية ماهى إلا قوات الحملة الصليبية السابقة التى يقودها ملك فرنسا لويس التاسع في طريقه إلى غزو مصر ومن بعدها فلسطين ولبنان وسوريا، وهنا لم يكن عسيراً على أن

أقدر مدى أهمية ما يمكن أن تحدثه
هذه الحملة من تغيرات في خريطة
العالم العربي إذا ما قدر لها النجاح
في احتلال مصر والسيطرة عليها،

خاصة أن لديها من القوة ما يؤهلها
إلى بلوغ غايتها، ولم يكن عسيراً
عليّ أيضاً أن أتقرب إلى قادة الحملة
بل إلى الملك لويس التاسع نفسه بعد
أن استقر عزمي

على مصاحبتهم
إلى مصر التي
انطلقنا إليها على
ظهر السفن
الصليبية في
نهاية شهر مايو
عام ١٢٤٩.

وصلت سفن
الحملة إلى
شاطئ دمياط،
فوجدتها مدينة
شديدة التحصين
لدرجة يتعذر
معا اقتحامها
مما جعل الملك
لويس التاسع
يقرر النزول على



بقايا أحد منشآت الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة

الضفة الغربية لفرع النهر في الجهة
المقابلة للمدينة حيث كان فخر الدين
يوسف قائد الجيوش المصرية ينتظر
بجنوده وقد كُلف بمنع الصليبيين من
بلوغ الشاطئ، ومع شروق شمس
الخميس من يونية نزلت الزوارق
الصليبية إلى الماء واندفعت تحمل
فرسان الحملة في أفواج متتابعة
صوب الشاطئ الذي تحول من فوره
إلى ساحة مشتعلة بلهب القتال
تنبعث من جنباتها صيحات الصدام
وتتشابك فتحجب عن الآذان ضجيج
الأمواج الهادرة، وعلى الرغم من كل
محاولات الجيوش المصرية ظل
الصليبيون يتدفقون على الشاطئ
بقوة حتى إذا ما مالت الشمس إلى
المغيب أدرك فخر الدين عجزه عن
التصدى لهم وفشل في إرغامهم على
التراجع إلى سفنهم فما كان منه إلا
أن أثر الانسحاب إلى الضفة
الشرقية، وهناك بدلاً من أن يحتمي
بجنوده خلف أسوار دمياط أسرع

يكمل انسحابه متجهًا صوب الجنوب
مما تسبب في انتشار الفرع بين حاميه
وأهالي دمياط وفرارهم من خلفه
تاركين المدينة الحصينة وقد جردت من
كل سبل الدفاع والمقاومة.

وفي صباح اليوم التالي استطاعت
الجيوش الصليبية أن تكمل نزولها
على الشاطئ الغربي لفرع النهر في
يسر وسلامة، ثم مالبت أن عبرت
إلى دمياط حيث اجتازت أبوابها
المفتوحة واستولت على كل ما فيها من
أسلحة ومعدات وأموال وذخائر قبل
أن تشرع في اتخاذها مركزاً حريباً
وقاعدة للانطلاق صوب القاهرة وبينما
انشغلت الجيوش الصليبية في إعادة
تنظيم صفوفها داخل دمياط انتهزت
أنا هذه الفرصة وأخذت أبحث عن
نيل إلى أن تمكنت من العثور عليه
وسط جموع المتطوعين المصريين الذين
خرجوا في طريقهم إلى مدينة
المنصورة حيث معسكرات جيوشهم،

فما إن وقع
بصرى عليه حتى
اقتربت منه ورحت
أحدثه قائلاً : لقد
طال بحثى عنك،
وهأنذا أعثرُ
عليك أخيراً
لأعلم منك جميع



بالتصدى لجلال الدين الخوارزمي الذي
راح يُغيرُ على أراضى الملك الأشرف
إغاراتٍ همجية مفزعة، وعلى الرغم
من نجاحهم في ردّ العدوان الخوارزمي
والحاق الهزيمة بجلال الدين في نهاية
شهر أغسطس عام ١٢٣٠، لم
يستطع الأيوبيون أن يضمّنوا لدولتهم
الأمن والسلامة، فعلاوة على بقاء
الوجود الصليبي جاثماً على أراضهم
كان الخطر المغولي يتقدّم نحوهم
بخطوات ثابتة .

فقلت له : وهل تعرّض المغول
لأراضى الدولة الأيوبية يانيل ؟

مادار على أرضكم من أحداثٍ منذ
حصول الإمبراطور فردريك الثاني
على بيت المقدس عام ١٢٢٩ .

فقال : بعد حصوله على بيت
المقدس عاد الإمبراطور فردريك
الثاني إلى الغرب الأوربي، ليدبّ
الضعف في صفوف الإمارات
الصليبية وتزداد الخلافات والمنازعات
اشتعالاً بين أمرائها، مما أتاح الفرصة
أمام الأيوبيين للضغط عليهم
واستعادة مدينة بيت المقدس التي
ظلت محطمة الأسوار دون جيش قوى
يدافع عنها، غير أن شيئاً من ذلك لم
يحدث لانشغال القوى الأيوبية حينئذ

فقال : لقد خاض جلال الدين في طريقه لاستعادة أراضى دولته صراعاً هائلاً مع الجيوش المغولية حتى أنه اضطر في إحدى معاركه معهم إلى إغراق والدته وزوجته في أحد الأنهار خشية وقوعهما في الأسر، وعلى الرغم من أنه تمكّن من إحراز بعض النجاح عقب وفاة جنكيزخان عام ١٢٢٧، مالبث أن تدافعت عليه جيوش المغول واجتهدت في ملاحقته إلا أنه لقي مصرعه عام ١٢٣١، لتنهار المقاومة الخوارزمية تماماً ويقف المغول على مشارف أراضى العراق يتطلعون إليها وإلى أراضى الأيوبيين التى لا يزال حكامها في عدم التفاتهم إلى ذلك الخطر الداهم غير قادرين على النظر إلى ما هو أبعد من مواضع أقدامهم .

فقلت له : دعنا الآن من التنبيه بما يمكن أن يجرى في الغد، ولتُكْمِلْ قصص ما وقع بالفعل في بلادكم من أحداث .

فقال : واصل الأيوبيون بعد وفاة جلال الدين الخوارزمي انقسامهم على أنفسهم وراح الملك الأشرف يجمع حوله ملوك البيت الأيوبي محرضاً إياهم على مهاجمة السلطان الكامل صاحب مصر، وقبل أن تدور رحى المعارك توفى الأشرف عام ١٢٣٧، لكن خليفة الملك الصالح إسماعيل بن العادل ماكاد يجلس على عرش دمشق حتى راح يتابع جهود الأشرف العدائية ضد السلطان الكامل الذى سرعان ما انطلق بجيوشه من مصر وقام بمحاصرة دمشق، فلم يمض علي حصاره لها وقت طویل حتى نجح في اقتحامها والاستيلاء عليها معاقباً الصالح إسماعيل بخلعه من حكمها وإعطائه إقطاعاً ثانوياً في أراضى لبنان في أوائل عام ١٢٣٨، ذلك العام الذى لم ينقض شهره الثالث إلا وقد توفى السلطان الكامل، ليخلفه ابنه العادل في الجلوس على عرش السلطنة في مصر وليبدأ بجلوسه على

العرشِ دوراً جديداً من أدوارِ
المنازعاتِ الأيوبية .

فقلتُ له : وما الذى جرى في ذلك
الدورِ الجديدِ يانيلُ ؟

فقال : ما إن جلس العادلُ على
عرشِ السلطنةِ في مصرَ حتى قام
أخوه الصالحُ نجمُ الدينِ أيوبُ
بالاستيلاءِ على الحكمِ في دمشقَ،
وبالطبعِ اشتعلَ النزاعُ بينهما وأسرعَ
الصالحُ إسماعيلُ باستغلالِ ذلك
النزاعِ وتمكّنَ في نهايةِ عامِ ١٢٣٩
من استردادِ حكمِ دمشقَ، فما كان من
نجمِ الدينِ أيوبَ إلا أنه ذهبَ إلى
الناصرِ داودَ صاحبِ الأردنَ يعرضُ

عليه القيامَ بهاجمةِ مصرَ
واستخلاصِها من يدِ العادلِ الذى
كان قد مالَ إلى العيثِ والبعدِ عن
الاهتمامِ بشئونِ الحكمِ والإدارةِ
فاستاءَ منه قادةُ جنودِهِ وقاموا بإلقاءِ
القبضِ عليه في مايو عامَ ١٢٤٠، ثم
راحوا يستدعونَ الصالحَ نجمَ الدينِ
أيوبَ ويسلمونه الحكمَ ليجلسَ على
عرشِ السلطنةِ دونِ الحاجةِ إلى أى
مواجهةٍ عسكريةٍ وبشرعٍ في إشعالِ
نيرانِ العداءِ معَ عمِّهِ الصالحِ
إسماعيلَ الذى سبقَ أن قامَ بطردهِ من
دمشقَ، وكما هى العادةُ دائماً انقسمَ
البيتُ الأيوبي بين الطرفين المتنازعينِ
في فوضى عارمةٍ
ازدادت ارتباكاً
بتدخلِ الصليبيينِ
ومحاولتِهِمِ
الاستفادةَ من هذهِ
الحالةِ المترديةِ
التي وصلَ إليها
الأيوبيون .



فقلتُ له : وكيف استطاع
الصلبيون التدخل بعد أن أصابهم
الوهنُ أو أنهكت الصراعات الداخلية
قوة إماراتهم ؟

فقال : كان السلطان الكامل قد
عقد مع الإمبراطور فردريك الثاني
والصلبيين هدنة مدتها عشرة أعوام
ماكادت تنتهى حتى أسرع الأوربيون
يرسلون الإمدادات الحربية إلى
إمارات الصليبيين لمساعدتها على
استغلال الانقسامات المتفشية في
صفوف الأيوبيين، ومع وصول أنباء
هذه الإمدادات انطلق الناصر داودُ
على رأس جيوشه إلى مدينة بيت
المقدس وتمكّن من الاستيلاء عليها مما
أصاب الصليبيين بصدمة قاسية
جعلتهم يسرعون بمهاجمة الأراضى
العربية، إلا أن السلطان العادل وكان
لا يزال سلطاناً على مصر بادر بإرسال
جيوشه إلى حيث دارت المعركة
بالقرب من مدينة غزة في الثالث عشر
من نوفمبر عام ١١٣٩، وتمكنت

الجيوشُ المصرية من الوقوف في وجه
الصلبيين وإلحاق الهزيمة بهم قبل أن
تعود إلى القاهرة وفي صحبتها أعدادُ
وفيرة من أسرى المعركة وبعد انتهاء
المعركة وتخلّص قادة الجند من
السلطان العادل، راح سلطان مصر
الجديد الصالح نجم الدين أيوب يعقدُ
لواء التحالف مع الناصر داود لمهاجمة
دمشق والنيل من الصالح إسماعيل
الذى قام بدوره بالاستعانة ببعض
الملوك الأيوبيين بل راح يتعدى ذلك
إلى طلب العون من الصليبيين، ولكى
يسرهن لهم على صدق نواياه بادر
بمساعدتهم في احتلال بيت المقدس
كما قام بتسليمهم عدة قلاع عربية
أخرى قبل أن يعدّهم بحكم جزء كبير
من أرض مصر إن هم عاونوه في
غزوها والسيطرة عليها .

فقلتُ له : وبالطبع وافق الصليبيون
على معاونته في غزو مصر، أليس
كذلك ؟



فقال : بلى يا
أبتى، وسرعان
ما زحف الصالحُ
إسماعيلُ وحلفاؤه
الصليبيون
بجيشيَّهما
صوبَ مصرَ،
وفي مدينةِ غزة
ما إن دقت طبولُ
الحرب معلنةً بدءَ
المواجهةِ حتى
بادر عددٌ كبيرٌ
من الجنودِ
السوريين بالخروجِ
على الصالحِ
إسماعيلَ
والانضمامِ إلى

صفوفِ الجيوشِ

مآذنه المدرسة الصالحية

وعقبَ الانتصارِ وافقَ سلطانُ مصرَ
الصالحُ نجمُ الدينِ أيوبُ على عقدِ
الصُلحِ مع الصليبيين، لكي يتفرَّغَ
لصراعهِ مع عمِّه الصالحِ إسماعيلَ،

المصرية، لتدورَ الدائرةُ على الصليبيين
ويتساقطَ جنودُهم في ساحةِ المعركةِ
بين قتيلٍ وأسيرٍ قبل أن يلوذَ من تبقى
منهم بالفرارِ عائدين إلى إماراتهم،

وهكذا لم يكذب يمرُّ على انتصار غزاة
أربعة أعوام حتى كان جميع الملوك
الأيوبيين يطلبون مساعدة الصليبيين
لحسم ما اشتعل بينهم من منازعات .

فقلت له : وكيف حدث ذلك ؟

فقال : بعدما نجح الصالح
إسماعيل في جذب الناصر داود
صاحب الأردن إلى جبهته راح يسعى
إلى تضيق الخناق حول الصالح نجم
الدين أيوب، فبادر بإغراء الصليبيين
بما سيمنحه لهم من مكاسب إذا هم
مدوا له يد العون في غزو مصر التي
لم يجد سلطانها مفرًا من محاولة
التقرب لهم بدوره ليضمن وقوفهم
بجانيه ومساعدته على مهاجمة
أراضي سوريا والأردن، أما
الصليبيون فقد حرصوا في بداية
الأمر على إنهاك القوى الأيوبية بعدم
الانضمام إلى أي من الطرفين
المتصارعين بهدف الخروج بأكبر قدر
ممكن من المكاسب، حتى إذا ما احتدم
الصراع اختاروا الوقوف إلى جانب

الصالح إسماعيل والناصر داود طمعًا
في أرض مصر، وهنا أسرع الصالح
نجم الدين أيوب يبحث عن مخرج
سريع لذلك المأزق، فلم يجد أمامه
سوى الجنود الخوارزميين الذين تفرقوا
بعد مقتل سلطانهم يعرضون خدماتهم
الحربية على ملوك وأمراء المشرق،
وقد كان لاستعانتهم بهؤلاء الجنود
الفضل الأكبر في تحويل دفة الصراع
لصالحه .

فقلت له : أتقصد أن نجم الدين
أيوب قد نجح بمساعدة هؤلاء
الخوارزميين في التغلب على الجيوش
الأيوبية بقيادة الصالح إسماعيل
والناصر داود بالإضافة إلى من انضم
إليها من جنود الصليبيين؟

فقال : لقد استجاب نحو عشرة
آلاف مقاتل خوارزمي لدعوة الصالح
نجم الدين ومالبثوا أن انطلقوا صوب
مصر، وفي طريقهم إليها قاموا
بالاستيلاء على عدة مواقع صليبية ثم

قاموا بمهاجمة
مدينة بيت
المقدس ونجحوا
في السيطرة
عليها قبل أن
ينضموا إلى
معسكر الجيوش
المصرية في غزة
حيث وقع الصدام



الأمراء الصليبيين، غير أنه ما إن
نجح في الاستيلاء على أغلب أراضى
الأردن وجنوب ووسط سوريا بما فيها
مدينة دمشق حتى انشق عليه جنوده
الخوارزميون معرضين كل فتوحاته
 وإنجازاته لخطر جسيم.

فقلت له : وما الذى جعلهم
ينشقون عليه يانيل ؟

فقال : كان الخوارزميون يأملون
في أن يجزل لهم الصالح نجم الدين
أيوب العطاء بعد أن عاونوه في
القضاء على أعدائه، غير أنه تخوف

بجيوش الصليبيين وحلفائهم الأيوبيين
في السابع عشر من أكتوبر عام
١٢٤٤، وكان النصر للسلطان
الصالح نجم الدين وجيوشه التى
أطاحت سيوفها برؤوس نحو ثلاثين
ألفاً صليبي، الأمر الذى يعد أكبر
الكوارث التى تعرضت لها الإمارات
الصليبية في المشرق منذ موقعة
حطين، ولم يكتف نجم الدين بذلك بل
راح يفرق جيوشه بين أراضى فلسطين
والأردن وسوريا لمتابعة القتال عازماً
على القصاص من الصالح إسماعيل
والناصر داود جنباً إلى جنب مع

مما قد يحدثوه من فوضى إذا ما
استقرَّ بهم المقام في دولته فرفض
السماح لهم بالبقاء في القاهرة أو
دمشق، وأمام ذلك الرفض ثار
الخوارزميون، ومالبت أن انضم إليهم
الصالح إسماعيل والناصر داود
ليزحف الجميع صوب سوريا وينجحون
في محاصرة الصالح نجم الدين خلفاً
أسوار دمشق، وقبل أن يمر على
محاصرتهم له وقت طويل تمكّن نجم
الدين من إلحاق الهزيمة بهم واستطاع
تشتيت شمل الخوارزميين وإبعاد
خطرهم تماماً عن أراضى دولته، ثم
قام بمهاجمة القلاع الصليبية الواحدة
من بعد الأخرى إلى أن تراجعت
الحدود الجنوبية لأمالك الصليبيين
على الساحل الشرقي للبحر المتوسط
حتى مدينة يافا قبل أن يعود إلى
دمشق في شهر نوفمبر عام ١٢٤٨،
ليعيد تنظيم إدارة دولته التي اتسعت
بشكل كبير، ويتلقّى فروض الولاء
من سائر الملوك الأيوبيين الذين

توافدوا عليه يعلنون الخضوع
لسلطانه والالتزام بطاعة أوامره .

فقلت له : لقد كان نجاح نجم الدين
على هذا النحو إذن هو السبب في
قيام الحملة الصليبية السابعة.

فقال : أجل يا أبتى، فقد استنجد
الصليبيون بالغرب الأوربي الذي
انتفض كما هو الحال دائماً يدعو إلى
القيام بحملة صليبية جديدة، ولما كان
ما يدور حينئذ في أرجاء القارة
الأوربية من أحداث يحول دون
استجابة كثير من الملوك والأمراء
لتلك الدعوة، لم يلب النداء الصليبي
سوى لويس التاسع ملك فرنسا الذي
أعلن استعدادة لقيادة الحملة وأسرع
يعدّ جيوشه عازماً على غزو مصر،
حتى إذا ما وصلت أنباء استعداداته
إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب
وكان مريضاً في دمشق أمر بأن
يحمل إلى القاهرة حيث راح يعمل
كل ما في طاقته لإعداد جيوشه



قاعة فرعون

إلى مدينة المنصورة حيث عسكر
بجيوشه وراح يعيدُ تنظيمها استعداداً
لصدّ جيوش الصليبيين ومنعها من
الوصول إلى القاهرة، وها هي جموعُ
المصريين كما ترى تزحفُ صوبَ
المنصورة من شتى بقاع الدلتا والوادي
للتطوع والمساهمة في ردّ عدوانِ
لويس التاسع وجنوده .

فقلتُ له : حسناً يانيلُ، الآنُ أكونُ
قد علمتُ كلَّ شيءٍ عن حياةِ بلادكم

وتحصينِ القلاعِ المصريةِ، وعلى الرغمِ
من وفرةِ استعداداتِ بلادنا وقوةِ
تحصيناتها نجحتِ الجيوشُ الصليبيةُ
منذ عدةِ أيامٍ في الوصولِ إلى
شواطئنا الشمالية وتمكنوا من
الاستيلاءِ على مدينةِ دمياط.

فقاطعته قائلاً : أجلُ أعلمُ ما كان
من أمرِ استيلائهم على دمياط، فما
الذي حدث بعد ذلك؟

فقال : أسرع الصالحُ نجمُ الدينِ

السياسية والاقتصادية والاجتماعية
تحت حكم الأيوبيين، ولكن ماذا عن
حياتها الثقافية والفنية؟

فقال : اتصف السلاطين الأيوبيون
برغبتهم الدائمة في الارتفاع بمستوى
الحياة الثقافية في ربوع بلادنا على
الرغم مما شغل عصرهم من حروب
ومعارك لاتنتهى، فقد نقل صلاح
الدين إلى أرضنا نظام المدارس الذى
ابتدعه السلاجقة وأخذه عنهم حكام
الدولة الزنكية، فأنشأ مدرستين في
عهد العاضد الفاطمى ثم أتبعهما
بثلاث أخر بعد انفراده بالحكم، وعلى
نهج صلاح الدين حرص سلاطين مصر
على نشر المدارس في جنابات القاهرة
والمدن الرئيسية، ومن أشهر مالدينا
منها الآن المدرسة الكامليّة التى
أقامها الكامل بن العادل والمدرسة
الصالحية التى أقامها السلطان الحالى
الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل .

فقلت له : وهل اقتصر العمل في
هذه المدارس على تعليم المعارف

الإسلامية؟

فقال : كان التعليم في المدارس
عند بداية إنشائها يقتصر على
المعارف الإسلامية، لكنه سرعان
ما تطور تطوراً كبيراً حتى صار اليوم
يعتنى بتدريس كافة المعارف العملية
والفلسفية واللغوية جنباً إلى جنب مع
علوم الفقه والقرآن والسنة، ويقوم
بالتدريس في هذه المدارس مجموعة
مختارة من كبار العلماء يساعدهم
عدد وفير من المعيددين الذين يتركز
عملهم في إعادة الدروس على
الطلاب ومناقشتهم فيها، ولخدمة
المعلمين والمتعلمين أنشئت في
المدارس مكاتب خاصة علاوة على
المكاتب العامة المنتشرة في ربوع
مصر وفي مقدمتها مكتبة القلعة
التي أقامها السلطان الكامل وزودها
بنحو ثمانية وستين ألف مجلد من
أندر وأنفس المخطوطات، وإذا كانت
المدارس تمثل مع المساجد الجامعة
معاهد التعليم العالى في بلادنا فقد

اهتمُّ الأيوبيون بإنشاء
الكتاتيب كمعاهدٍ
للتعليم الأولى يدرسُ
فيها الصبية مبادئَ
القراءة والكتابة
والحساب بالإضافة إلى
حفظ آيات القرآن
الكريم .

فقلتُ له : لا بدُّ أنه
ظهر الكثيرون الذين
برعوا في إتقان شتى
صنوف المعارف في
مصر الأيوبية .

فقال : إلى جانب مَنْ برعوا في
المعارف العملية والإسلامية تميَّزَ
عصرُنا الأيوبيُّ بكثرة مَنْ برعوا في
المعارف الأدبية واللغوية، ففي الشعرِ
برع ابنُ سناء الملك وعُمَرُ بنُ الفارضِ
وبهاء الدين زهير، وفي النثر والنحوِ
تفوق القاضي الفاضلُ ومحمدُ بنُ برِّي
وعبدالمعطي الزواوي، أما في حفظِ

الأخبار فقد شهدت
بلادُنا نشاطاً ملحوظاً
إذ اتجه البعضُ إلى
تأليف موسوعاتٍ
ضخمةٍ في أحداثِ
العالم الإسلامي، بينما
اتجه البعض الآخرُ إلى
تدوين أخبار الملوكِ
والسلاطين أو حفظِ
حوادث الصراع بين
العرب والصليبيين،
وفي مقدمة كلِّ هؤلاء
يأتي أبو علي الجَوَانِي
وبهاء الدين ابنُ شدَّادٍ .

فقلتُ له : ستساعدني فيما بعدُ
دونَ رتبٍ عليَّ جمع كلِّ ما كُتِبَ عن
أخبار بلادكم والعالم الإسلامي، ولكنَّ
دعنا نكمل الآن حديثنا عن ثقافةِ
مصر وفنونها تحت حكم الأيوبيين .

فقال : في الفنون واصلت بلادنا
خلال العصر الأيوبي السيرَ على



مسجد الإمام الحسين

طريق صبيغ ما تخرجهُ أيدي فنانيها
بصبغة قومية تحملُ من التأثيرِ
المصريُّ أكثرَ مما تحملُ من التأثيرِ
العربي والإسلامي العام، وقد
انقسمت العمارة الأيوبية في أرضنا
إلى قسمين أولهما هو العمارة الحربية
التي خُطتْ مع الحروب الصليبية
خطوات واسعة صوب الرقي والتقدم
ويظهرُ ذلك واضحاً في السور الذي
أقامه صلاح الدين حول القاهرة وفي
القلعة التي أنشأها على جبل المقطم
والتي كان الكامل أول من سكنها
واتخذ منها مقراً للحكم إذ تتألف
أبنيتها من قطاعين منفصلين بجدار
مزدوج سميك، القطاع الشمالي
يتكوّن من الحصن والمنشآت الحربية
التي أقامها صلاح الدين، أما القطاع
الجنوبي فيضم القصور السلطانية
وملحقاتها، وبالإضافة إلى قلعة
الجبل اعتنى الأيوبيون بإنشاء
وصيانة عدد كبير من القلاع المتفرقة
في أرجاء الأراضى المصرية وأهمها

قلعة سيناء وقلعة فرعون في خليج
العقبة، أما القسم الثاني وهو العمارة
المدينة فقد تركّز ذلك القسم فيما
أقامه الأيوبيون من مساجد ومدارس
وقصور منتشرة في جنبات عاصمة
مصر وأقاليمها.

فقلت له : وماذا عن صنوف الفنون
الأخرى؟

فقال : احتفظ الحفر على الأخشاب
في العصر الأيوبي بتفوقه وازدهاره
وصارت زخارفه الهندسية والنباتية
أكثر إتقاناً ودقة، وكذلك النحت على
الحجر والجص بأساليب المصرية
التميزة التي تظهر بوضوح في منارة
المشهد الحسيني وقبة الإمام
الشافعي، وإذا كانت فنون الخزف قد
تراجعت قليلاً في أيامنا هذه، كما
أصبحت زخرفة المنسوجات أكثر
بساطة وأقل كمالاً مما كانت عليه في
عصرنا الفاطمي، فقد تطورت فنون
الزجاج تطوراً عظيماً جعل من مصر
واحدة من أكثر البلدان تقدماً في ذلك

النوع من الفنون.

كنا قد وصلنا إلى أبواب المنصورة حينما تلفت إلي متسائلاً : هل ستبقى في بلادنا إلى أن تعلم نتيجة حروبنَا مع جيوش لويس التاسع؟

فقلتُ له : بالطبع فأنا لم أحضرُ إلى بلادكم إلا لكي أعلم نتيجة هذه الحروب .

فقال : ستظلُّ معنا في المنصورة إذن!

فقلتُ له : لا.. بل سأذهبُ إلى دمياط فلي هناك أصدقاء كثيرون من بينهم الملك لويس التاسع نفسه .

فنظر إلي مستنكراً والشرر يتطايرُ من عينيه بينما رحتُ أكملُ حديثي قائلاً : قد يكونُ الصليبيون أعداءَ لكم، غيرَ أني لم أعادِ ولن أعادِ أحداً، وما دمتُ قد قررتُ البقاءَ إلى أن تنتهى المعاركُ، فمن حقِّي أن أضمنَ سلامتي بالبقاء في الجانبِ

الأقوى، وهم بلا ربِّ الأقوى والأقربُ إلى إحرازِ النصرِ .

لم يعلقُ نيلٌ على كلماتي بل تركنى مجتازاً أبوابَ المنصورة في مقدمة جموع المتطوعين، بينما انطلقتُ أنا عائداً إلى دمياط حيث أخذتُ أتابعُ وصولَ الإمداداتِ إلى الحملةِ الصليبية، هذه الإمداداتُ التى ما إن علم الصالحُ نجمُ الدينِ أيوبُ بأمرِ وصولِها حتى أرسل إلى لويس التاسع يعرضُ عليه التنازلَ عن بيت المقدس وبعضِ المدنِ الأخرى مقابلَ الجلاءِ عن مصرَ، غيرَ أن لويس التاسع قَبَّلَ عرضَه بالرفضِ، إذ كيف يوافقُ على مثل ذلك العرضِ وقد ضمن بتفوقِ قواتِهِ الحصولَ على مصرَ وكلِّ ما يريدُه من أراضى فلسطينَ ولبنانَ وسوريا ؟

بقيتُ في دمياط أراقبُ أخبارَ مرضِ الصالحِ نجمِ الدينِ واستعداداتِ الصليبيين للتقدم مايقربُ من خمسة

أشهرٍ كاملةٍ قبلَ أن يقرّرَ لويسُ
التاسعُ الزحفَ بجيوشِهِ صوبَ القاهرةِ
في العشرين من نوفمبرَ عامَ ١٢٤٩،
وبعدَ مرورِ ثلاثةِ أيامٍ على بدايةِ
الزحفِ لحقتِ الوفاةُ بالسلطانِ الصالحِ
نجم الدينِ وكاد الأمرُ ينقلبُ إلى
كارثةٍ مروعةٍ لولا شجاعةُ زوجتهِ
شجرةِ الدرِّ وسدادُ رأيها، إذ أخفت
خبرَ الوفاةِ عن الجميعِ عدا فخرَ الدينِ
يوسفَ قائدَ الجيوشِ وأحدَ موظفي
القصرِ الذي طلبتِ منه تدبيرَ الأمرِ
بمحاكاةِ توقيعِ السلطانِ على قراراتِ
الحكمِ والإدارةِ إلى أن يصلَ ابنُهُ
ووليُّ عهدهِ المعظمُ توران شاهَ الذي
أرسلتِ في طلبِهِ من حصنٍ كيفا
الواقعِ على الضفةِ الغربيةِ لنهرِ دجلةَ،
وعلى الرغمِ من مهارةِ شجرةِ الدرِّ
وشدةِ حرصِها تسربتِ أخبارُ وفاةِ
الصالحِ نجم الدينِ إلى الصليبيينِ
الذين أرادوا انتهازَ الفرصةِ والإسراعَ
في الزحفِ، غيرَ أن جهلَهُم بطبيعةِ
الأراضيِ المصريةِ والتزامَهُم بالسيرِ

بمجازاةِ أسطولِهِم الذي يبحرُ في مياهِ
فرعِ دمياطَ من جانبٍ، وزيادةِ
هجماتِ الفدائيينِ المصريينِ على
أطرافِ جيوشِهِم من جانبٍ آخرَ حالتِ
دونَ بلوغِهِم مدينةَ المنصورةِ بالسرعةِ
المطلوبةِ .

وفي الجهةِ المقابلةِ للمنصورةِ
عسكرتِ الجيوشُ الصليبيةُ يفصلُها
عن جيوشِ مصرَ بحرُ أشمومَ، وعن
طريقِ مخاضةٍ قريبةٍ في ذلك البحرِ
عبرتِ مقدمتُها في الثامنِ من فبرايرَ
عامَ ١٢٥٠ بقيادةِ شقيقِ الملكِ لويسَ
التاسعِ الأميرِ دارتوا الذي ما كاد
يصلُ إلى الضفةِ الأخرى في بضعةِ
آلافٍ من جنودِهِ حتى بادَرَ بمهاجمةِ
المصريينِ الذين أفرعتهم المفاجأةُ
فتدافعوا صوبَ المنصورةِ، وبدلاً من
أن ينتظرَ عبورَ بقيةِ الجيوشِ الصليبيةِ
اندفعَ دراتوا برجالِهِ إلى المدينةِ حيثُ
ساد الارتباكُ صفوفَ المصريينِ وخرَّ
قائدُ جيوشِهِم صريعاً بينما واصلَ
دارتوا تقدمَهُ عازماً على اقتحامِ قصرِ



السلطان،
وهنا
انشقت
الأرضُ عن
بيبرس
البندقدارى
أحدِ القادةِ
المماليكِ.

فضَّلَ أن يظلَّ معسكرًا أمامَ المنصورةِ
إلى أن يتمكَّنَ من تدبيرِ أمرِ هجومٍ
جديدٍ على معسكرِ المصريين، وفي
السابعِ والعشرين من فبراير وصل
المعظمُ تورانُ شاه وتسلَّمَ القيادةَ،
فازدادت جيوشُه ثقةً في النصرِ
وراحت تساندُ أسطولها الذي هاجم
أسطولَ الصليبيين في فرعِ دمياطَ
ونجح في إحرازِ عدةِ انتصاراتٍ
متتاليةٍ عليه، كما نجح في منع
وصولِ النجدياتِ والمؤنِ إلى الجيوشِ
الصليبيةِ عن طريقِ النهرِ مما دفع
لويسَ التاسعَ إلى أن يعرضَ على
توران شاه استعدادَهُ للجلاءِ عن

الذى تمكَّنَ من لمَّ شملِ الجيوشِ
المصريةِ ويادر بالتصدِّي لدارتوا
وجنوده الذين سرعان ما خارت قواهم
وتفرقوا بين طرقاتِ المنصورةِ وأزقتها
التي سُدَّتْ مخارجُها بالمتاريسِ حيث
انقضَّ عليهم الجنودُ والأهالي فلم
ينجوا منهم أحدٌ يذكرُ.

ومن جديدٍ خرجتِ الجيوشُ المصريةُ
لملاقاةِ جيوشِ الصليبيين التي كانت
قد أتمت عبورها واستمرَّ القتالُ
محتدمًا حتى المساءِ دونَ أن يحسمَ
أحدُ الطرفين المعركةَ لصالحه، وبعد
انفصالِ الجيوشِ لم يشأَ لويسُ التاسعُ
الانسحابَ بجنوده إلى دمياطَ بل

دمياطَ مقابلَ منجِه بيتَ المقدسِ، غيرَ
أنه رفض الاستجابةَ إلى عَرْضِهِ .

وفي الخامسِ من أبريلَ وبعد أن
ساء موقفُ الصليبيين وتفشَّت بين
صفوفِهِمُ الأمراضُ والأوبئةُ بينما
تخطفت هجماتُ الفدائيين المصريين
جنودَهُم، لم يجدُ لويسُ التاسعُ - وكان
قد أصابه المرضُ - مفرّاً من
الانسحابِ إلى دمياطَ، وهكذا
تراجعت الجيوشُ الصليبيةُ يخيّمُ عليها
الضعفُ والمرضُ في انسحابٍ غيرِ

منظمٍ، فلم يتركهُمُ المصريون يتراجعون
في سلامٍ بل لاحتقوهم وشتُّوا عليهم
هجومًا شاملاً في منتصفِ المسافةِ
ما بين المنصورةِ ودمياطَ فشتَّتوا
صفوفَهُم وأمنعوا فيهم قتلاً وأسراً
قبل أن ينجحوا في القبضِ على
ملكِهِمُ الذي سيقَ أسيراً إلى المنصورةِ
حيث أودِعَ دارَ القاضي فخرِ الدين بنِ
لقمانَ بينما سرتُ أنا وسطَ جموعِ
الأسرى الصليبيين لا أدري ماذا
سيفعلُ معي المصريون أو أين
سيذهبون بي !

أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وألون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.



حقوق التوزيع فى مصر والعالم محفوظة



للمكتب العربى المعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى

ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة

ت: ٢٤٢١٥٢٦

الناشر



«نيل وتاريخ»

جميع حقوق الطبع والتوزيع مملوكة للناشر ويحظر النقل، أو الترجمة، أو الاقتباس من هذه السلسلة فى أى شكل كان جزئياً، أو كلياً بدون إذن خطى من الناشر، وهذه الحقوق محفوظة بالنسبة إلى كل الدول العربية، وقد اتخذت إجراءات التسجيل والحماية فى العالم العربى بموجب الاتفاقيات الدولية لحماية الحقوق الفنية والأدبية.

شخصيتان ملك لمنشورات الغالى وهاتان
الشخصيتان مسجلتان ومحفوظتان ولايجوز
استخدامهما إلا بتصريح خاص من المالك
«منشورات الغالى»



فجر الحضارة مصر وفارس مصر والى اليونانية
 مصر والدولة مصر والبطلمية مصر والى الفطاح
 بناء الأهرامات ميلاد الإسكندرية سقوط الدولة الفاطمية
 غروب شمس الأهرامات ونهار الدولة الفاطمية مصر والى الفاطمية
 العصر الذهبي بين زوايا الإسكندرية مصر والى الفاطمية
 النهضة العربية مصر والى الفاطمية مصر والى الفاطمية
 تأسيس الجمهورية مصر والى الفاطمية مصر والى الفاطمية
 عصر التحرير مصر والى الفاطمية مصر والى الفاطمية
 الرحمة المستمرة مصر والى الفاطمية مصر والى الفاطمية
 سقوط الدولة الفاطمية مصر فى عصر المماليك خلفاء الفاطميين
 مصر وآشور مصر فى العصر المملوكي النجاشي والمملوك
 مصر فى العصر العباسي

القاهرة
 مكتبة

Bibliotheca Alexandrina



0306181

مكتبة الإسكندرية

NC
2

4